Franklin, S., & Shepard, J., *The Emergence of Rus 750-1200*, (London, 1996), 450 pp., 11 maps.

عرض/ طارق منصور

يستند هذا الكتاب الهام إلى أن مؤلفيه اثنان من أشهر المتخصصين فى الدراسات التاريخية الروسية والسلافية فى العصور الوسطى ؛ ويعكس هذا الكتاب شخصية المؤلفين وقدراتهم البحثية العالية فالدكتور / سيمون فرانكلين من القلائل المتخصصين فى الدراسات السلافية فى العصور الوسطى ، كذلك الدكتور / جوناثان شبرد يمكن أن نعتبره نائبا للأستاذ الدكتور / دمترى أوبولنسكى *O. bolensky* فى التاريخ الروسى الوسيط ، وكلاهما يجيد العديد من اللغات السلافية التى أهلتهما لقراءة المصادر الروسية والسلافية الأصلية ؛ الأمر الذى أهلهما لإخراج هذا الكتاب فى الشكل الذى سنعرض له .

والكتاب الذى بين أيدينا يعتبر أحدث إصدار عن التاريخ الروسى الوسيط ، ومحتويات هذا الكتاب تعكس وجهة نظر المؤلفين ورؤيتهما الخاصة لمجريات الأحداث فى روسيا الكيفية بدءاً من ظهور الروس فى المجتمع الدولى وحتى انهيار دولتهم وغزو المغول لها فى القرن الثالث عشر الميلادى وقد قسم المؤلفان الكتاب إلى ثلاثة أبواب رئيسية .

الباب الأول وهو بعنوان **"الجذور والمسالك"** ، ويحتوى على عدة فصول : الفصل الأول وهو بعنوان "الباحثون عن الفضة من الشمال ٧٥٠ - ٩٠٠م" وفى هذا الفصل يتعرض المؤلفان إلى الحديث عن الظهور الأول للروس وخروجهم من شبه جزيرة اسكندیناوة ، كما يتحدثان عن الإغارات التى قاموا بها على الأمم المجاورة لهم خلال تلك الفترة ، ويركزان الحديث عن الهجوم الروسى الأول على القسطنطينية فى عام ٨٦٠م وما نجم عنه من تحولات

فى المجتمع الروسى آنذاك، خاصة الاقتصادية ، وهذا الفصل مدخل طبيعى لتاريخ روسيا الوسيطة ويعكس العنوان الذى اتخذه المؤلفان لهذا الفصل منظورهما الاقتصادى لتاريخ الروس فى هذه الفترة. فقد كان الروس يفتقرون إلى عملة محلية ولا يمكنهم الحصول على الذهب البيزنطى ، فكانت الإغارة على القبائل السلافية ومسلمى القوقاز سبيلاً للحصول على الفضة، بل إن الجزية التى كانوا يفرضونها على القبائل السلافية كانت من قطع الفضة .

أما الفصل الثانى وهو بعنوان "التحول نحو الجنوب" فيتحدث فيه المؤلفان عن السلاف وما شابههم القاطنين فى منطقة السهوب فى القرن التاسع الميلادى ، وعن حصول الروس على موطأ قدم لهم فى حوض الدنيبر الأوسط فى الفترة من ٩٠٠ - ٩٣٠م ؛ وهى الفترة التى شنوا فيها هجومهم المزعوم فى عهد أميرهم أولج Oleg فى عام ٩٠٧م على

القسطنطينية وما نجم عنه من عقد اتفاق مبدئى بينه وبين البيزنطيين فى نفس العام، ثم تـــلاه عقد معاهدة بينهما فى
عام ٩١١م.

وفى الفصل الثالث وهو بعنوان "روس الدنيبر ٩٢٠ - ٩٦٠م - تنظـــم أم وفـــاة : تأمين الطريق إلى بيزنطة" ، لخص المؤلفان وجهة نظرهما تجاه الأحداث التى وقعت فى تلـــك الفترة ، والتى كانت بالفعل تهدف إلى تأمين الطريق إلى بيزنطة مـــن هجمـــات الأعـــداء المجاورين كالبشناق مثلاً. ولم يكن ليتسنى لهم ذلك إلا بعد استقرارهم فى حوض الدنيبر .

أما الفصل الرابع وهو بعنوان "التحولات والتعميـــد ٩٦٠ - ١٠١٥م" فينبغـــى أن نقف عنده قليلاً . فهذه الفترة التاريخية قد شهدت تحولاً خطيراً فى المجتمع الروســـى علـــى صعيديه السياسى والاجتماعى ، حيث تمكنت القسطنطينية من ترويـــض الـــروس وذلـــك بتحويلهم إلى المسيحية الأرثوذكسية . ففى عام ٩٨٨م غزا الأمير الروسى فلاديمير مدينـــة خرسون البيزنطية للرد على حنث الإمبراطور البيزنطى بازيل الثانى بعهده بـــتزويج أختـــه الأميرة أنا بورفيروجنيتا
منه الأمر الذى دفع بفلاديمير للقيام بهذا الغزو ، إلا أن البلاط البيزنطى اشترط تعميد أمـــير الروس حتى يستطيع الزواج من الأميرة البيزنطية ، وهو ما تم فى النهاية . وتكمن أهمية هـــذا الفصل فى إلقاء الضوء على أثار هذا التعميد على الروس .

ويأتى **الجزء الثانى** من هذا الكتاب ليحمل عنوان **"كييف والروس"** ولعل المؤلفـــان أرادا بهذا العنوان توضيح زعامة كييف للروس فى تلك المرحلة وأنها كانت محور الأحـــداث والتراعات الداخلية التى نشبت بين الأمراء الروس على العرش وهذا ما جعل الفصل الخـامس يحمل عنوان "الشهداء والمرتزقة ١٠١٥ - ١٠٣٦م" ويمكن القول أن هذا الفصـــل صـــب اهتمامه على فترة الحروب الأهلية التى أعقبت موت الأمير الروسى فلاديمير عام ١٠١٥م .

أما الفصل السادس وهو بعنوان "المظـــاهر المتصدعـــة ١٠٣٦ - ١٠٥٤م" فيعـــنى بالدرجة الأولى بفترة حكم الأمير الروسى ياروسلاف Iaroslave ، التى شهدت بـــلاد الروس فى عهده طفرة حضارية كبرى ، وصار لبلاده شأنا كبيرا فى الغرب الأوربى ، حيـــث عقدت العديد من المصاهرات السياسية بين ياروسلاف والأسر الحاكمة فى كثير من الـــدول الأوربية أما على الصعيد الشرقى ، فقد هبط مؤشر العلاقـــات السياســـية بـــين كييـــف والقسطنطينية ، ومنيت الحملة الروسية على القسطنطينية فى عام ١٠٤٣م بالفشل الذريـــع ؛ وفى الشرق أيضا تمكن ياروسلاف من كسر شوكة البشناق فى عام ١٠٣٦م ، وبهذا تخلص

من خطرهم الذى ظل جاثماً على صدر الروس منذ بدايات القرن العاشر الميلادى . ويتميز هذا الفصل دون بقية الفصول السابقة بالحديث عن التأثيرات الحضارية البيزنطية على الروس ، كبناء الروس لكثير من الكنائس على الطراز البيزنطى مثل كنيسة آيا صوفيا الروسية ، وبناء القصور الملكية التى اتخذت لها أبواباً وحيوانات ورسومات ذات طابع بيزنطى خالص .

لقد كاد التأثير البيزنطى على الروس شاملاً متعدد الجوانب ، كالعمارة ، والفن ، والكتابات الأدبية والدينية ، والتجارة ... الخ وهو ما أبرزه المؤلفان تماماً فى هذا الفصل .

أما الفصل السابع فقد حمل عنوان "العالم الداخلى : تطور الفكر السياسى ١٠٥٤ - ١١١٣" ويعود المؤلفان ثانية فى هذا الفصل إلى التاريخ السياسى للروس والحروب الداخلية التى نشبت بين أبناء ياروسلاف ، الذى ترك لهم وصية يحضهم فيها على الحب والاحترام فيما بينهم والتماسك والطاعة الواجبة لأخيهم الأكبر ؛ وهذه الحرب لم يخمد لهيبها طوال ما يزيد على نصف القرن قليلاً ، حيث امتدت من أبناء ياروسلاف إلى أحفاده . وجاء مؤتمر لوبيتش سنة ١٠٩٣م ليبشر بالأمل وانتهاء الخلافات والتصدعات بين الأمراء الروس . ولم تستقم البلاد إلا بعد تولى الأمير الروسى فلادمير مونوماخوس Vladimir Monomachus الحكم ، لتبدأ سلسلة أخرى من التصدعات فى المجتمع الروسى بعد وفاته عام ١١٢٥م .

ويتحدث الفصل الثامن الذى حمل عنوان "الأمير والمدينة ١٠٧٠م - ١١٢٠م" عن مجتمع المدينة فى روسيا وعن الرهبان ورجال المال وغيرهم . ويعتبر هذا الفصل دراسة حضارية تاريخية جادة عن تلك الفترة .

وأخيراً نصل إلى الجزء **الثالث** الذى حمل عنوان **"قيام الولايات"** ليعكس حالة التفتت التى أصابت المجتمع الروسى فى الفترة التى أعقبت موت فلاديمير مونوماخوس وحتى الغزو المغولى لبلاد الروس ، وذلك من خلال الفصلين التاسع والعاشر من الكتاب . ففى هذه الفترة صارت هناك العشرات من الولايات الروسية المستقلة ، التى كان لكل منها حاكما مستقلا . وكان العداء والتنافر هو السمة المميزة للعلاقات بين هذه الإمارات وبعضها البعض الأمر الذى فت
فى عضد المجتمع الروس فكان صيداً سهلاً للمغول فيما بعد .

أخيراً يمكن القول أن هذا الكتاب تميز باحتوائه على مجموعة كبيرة من الخرائط السياسية والاقتصادية لبلاد الروس فى العصر الوسيط والتى تميزت بالدقة التاريخية وجودة الإخراج ؛ فجاءت لتسد عجزاً كبيراً فى الأطالس التاريخية عن هذه المنطقة . كما تميز هذا

الكتاب باحتوائه على مجموعة مبسطة من جداول الأنساب، والتى رصد فيها المؤلفان أنساب الأمراء الروس بداية من عهد الأمير أيجور Igor وزوجته الأميرة أولجا Olga ويمكن القول أن هذه الجداول لم تصل فى تفاصيلها التاريخية إلى المستوى الذى قدمه المؤرخ بومجـــارتن Baumgarten فى دراسته الرائعة عن أنســـاب الأمـــراء الـــروس des Rurkides.